

## سورة محمد

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَصَلَّ أَعْمَالُهُمْ (1)

هذه السورة مدنية , ولها اسم آخر . اسمها سورة القتال . وهو اسم حقيقي لها . فالقتال هو موضوعها . والقتال هو العنصر البارز فيها . والقتال في صورها وظلالها . والقتال في جرسها وإيقاعها .

القتال موضوعها . فهي تبدأ ببيان حقيقة الذين كفروا وحقيقة الذين آمنوا في صيغة هجوم أدبي على الذين كفروا , وتمجيد كذلك للذين آمنوا , مع إichاء بأن الله عدو للأوليين ولي للآخرين , وأن هذه حقيقة ثابتة في تقدير الله سبحانه . فهو إذن إعلان حرب منه تعالى على أعدائه وأعداء دينه منذ اللفظ الأول في السورة: (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم , والذين آمنوا وعملوا الصالحات وأمنوا بما نزل على محمد - وهو الحق من ربهم - كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم).

وعقب إعلان هذه الحرب من الله على الذين كفروا , أمر صريح للذين آمنوا بخوض الحرب ضدهم . في صيغة رنانة قوية , مع بيان لحكم الأسرى بعد الإثخان في المعركة والتقتيل العنيف: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب , حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق , فإما منا بعد وإما فداء , حتى تضع الحرب أوزارها).

ومع هذا الأمر بيان لحكمة القتال , وتشجيع عليه , وتكريم للإستشهاد فيه , ووعد من الله بإكرام الشهداء , وبالنصر لمن يخوض المعركة انتصارا لله , وبهلاك الكافرين وإحباط أعمالهم: ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم , ولكن ليلو بعضكم ببعض , والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم . يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم . .

ومعه كذلك تهديد عنيف للكافرين , وإعلان لولاية الله ونصرته للمؤمنين , وضياع الكافرين وخذلانهم وضعفهم وتركهم بلا ناصر ولا معين: فلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ? دمر الله عليهم , وللكافرين أمثالها . ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم . . كذلك تهديد آخر للقرية التي أخرجت الرسول [ ص ]: (وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر لهم).

ثم تمضي السورة بعد هذا الهجوم العنيف السافر في ألوان من الحديث حول الكفر والإيمان , وحال المؤمنين وحال الكافرين في الدنيا والآخرة . فتفرق بين متاع المؤمن بالطيبات ; وتمتع الكافرين بلذائذ الأرض كالحيوان: إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون وبأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم . . كما تصف متاع المؤمنين في الجنة بشتى الأشربة الشهيية من ماء غير آسن , ولبن لم يتغير طعمه , وخمر لذة للشاربين , وعسل مصفى , في وفر وفيض . . في صورة أنهار جارية . . ذلك مع شتى الثمرات , ومع المغفرة والرضوان . ثم سؤال: أهؤلاء (كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم . .)?

فإذا انقضت هذه الجولة الأولى في المعركة السافرة المباشرة بين المؤمنين والكافرين . أعقبها في السورة جولة مع المنافقين , الذين كانوا هم واليهود بالمدينة يؤلفون خطرا على الجماعة الإسلامية الناشئة لا يقل عن خطر المشركين الذين يحاربونها من مكة وما حولها من القبائل في تلك الفترة , التي يبدو من الوقائع التي تشير إليها السورة أنها كانت بعد غزوة بدر , وقبل غزوة الأحزاب وما تلاها من خضد شوكة اليهود , وضعف مركز المنافقين "كما ذكرنا في تفسير سورة الأحزاب" .

والحديث عن المنافقين في هذه السورة يحمل ظلالها . ظلال الهجوم والقتال , منذ أول إشارة . فهو يصور تلهيهم عن حديث رسول الله , وغيبة وعيهم واهتمامهم في مجلسه ; ويعقب عليه بما يدمغهم بالضلال والهوى: (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم: ماذا قال أنفا ? أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) . .

ويهددهم بالساعة يوم لا يستطيعون الصحو ولا يملكون التذكر: (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ? فقد جاء أشراطها . فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ?) . .

ثم يصور هلعهم وجبنهم وتهافتهم إذا ووجهوا بالقرآن يكلفهم القتال - وهم يتظاهرون بالإيمان - والفارق بينهم يومئذ وبين المؤمنين الصادقين: (ويقول الذين آمنوا: لولا نزلت سورة ! فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت !).

وبحثهم على الطاعة والصدق والثبات . ويرذل اتجاهاتهم , ويعلن عليهم الحرب والطردهم واللعن: (وأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ? أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) . .

وبفضحهم في توليهم للشيطان , وفي تأمرهم مع اليهود , ويهددهم بالعذاب عند الموت بالفضيحة التي تكشف أشخاصهم فردا فردا في المجتمع الإسلامي , الذي يدمجون أنفسهم فيه , وهم ليسوا منه , وهم يكيدون له: (إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى , الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر . والله يعلم أسرارهم . فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأديبارهم ? ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم . أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم , ولتعرفنهم في لحن القول . والله يعلم أعمالكم , ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم) . .

وفي الجولة الثالثة والأخيرة في السورة عودة إلى الذين كفروا من قريش ومن اليهود وهجوم عليهم: (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول - من بعد ما تبين لهم الهدى - لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم) . .

وتحذير للذين آمنوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أعدائهم: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول , ولا تبطلوا أعمالكم . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار , فلن يغفر الله لهم . .

وتحضيض لهم علي الثبات عند القتال:(فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم).. .

وتهوين من شأن الحياة الدنيا وأعراضها . وحض على البذل الذي يسره الله , ولم يجعله استئصالا للمال كله , رافة بهم , وهو يعرف شح نفوسهم البشرية , وتبرمها وضيقها لو أحفاهم في السؤال:

(إنما الحياة الدنيا لعب ولهو , وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تخلصوا ويخرج أضعافكم).. .

وتختم السورة بما يشبه التهديد للمسلمين إن هم بخلوا بإنفاق المال , وبالبذل في القتال:(ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله , فمنكم من يبخل , ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه , والله الغني وأنتم الفقراء , وإن تولوا يبدل قوما غيركم , ثم لا يكونوا أمثالكم).. .

إنها معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها ; يظللها جو القتال , وتتسم بطابعه في كل فقراتها .

وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة:[ أعمالهم . بالهم . أمثالهم . أهواءهم . أمعائهم . . ] وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف في الهواء:[ أوزارها . أمثالها . أفعالها . . . ] .

وهناك شدة في الصور كالشدة في جرس الألفاظ المعبرة عنها . . فالقتال أو القتل يقول عنه: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب). . والتقتيل والأسر يصوره بشدة: (حتى إذا أظتمموهم فشدوا الوثاق). . والدعاء على الكافرين يجيء في لفظ قاس: (فتعسا لهم وأضل أعمالهم). . وهلاك الغابرين يرسم في صورة مدوية ظلا ولفظا: (دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها). . وصورة العذاب في النار تجيء في هذا المشهد: (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم). . وحالة الجبن والفرع عند المنافقين تجيء في مشهد كذلك عنيف: (ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت!). . حتى تحذير المؤمنين من التولي يجيء في تهديد نهائي حاسم: (وإن تولوا يبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم).. .

وهكذا يتناسق الموضوع والصور والظلال والإيقاع في سورة القتال . .

الدرس الأول: 1 - 3 أهم صفات المؤمنين والكافرين

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وأمنوا بما نزل على محمد - وهو الحق من ربهم - كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ; وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم).. .

افتتاح يمثل الهجوم بلا مقدمة ولا تمهيد ! وإضلال الأعمال الذي يواجه به الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله . سواء صدوا هم أم صدوا وغيرهم - يفيد ضياع هذه الأعمال وبطلانها . ولكن هذا المعنى يتمثل في حركة . فإذا بنا نرى هذه الأعمال شاردة ضالة , ونلمح عاقبة هذا الشرود والضلال , فإذا هي الهلاك والضياع . وهي حركة تخلع ظل الحياة على الأعمال , فكأنما هي شخوص حية أضلت وأهلكت . وتعمق المعنى وتلقي

ظلاله . ضلال معركة تشرد فيها الأعمال عن القوم , والقوم عن الأعمال . حتى تنتهي إلى الضلال والهلاك !

وهذه الأعمال التي أضلت ربما كان المقصود منها بصفة خاصة الأعمال التي يأملون من ورائها الخير . والتي يبدو على ظاهرها الصلاح . فلا قيمة لعمل صالح من غير إيمان . فهذا الصلاح شكلي لا يعبر عن حقيقة وراءه . والعبرة بالباعث الذي يصدر عنه العمل لا بشكل العمل . وقد يكون الباعث طيبا . ولكنه حين لا يقوم على الإيمان يكون فلتة عارضة أو نزوة طارئة . لا يتصل بمنهج ثابت واضح في الضمير , متصل بخط سير الحياة العريض , ولا بناموس الوجود الأصيل . فلا بد من الإيمان ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه في كل اتجاهاتها , وتتأثر به في كل انفعالاتها . وحينئذ يكون للعمل الصالح معناه . ويكون له هدفه ويكون له أطراده وتكون له آثاره وفق المنهج الإلهي الذي يربط أجزاء هذا الكون كله في الناموس ; ويجعل لكل عمل ولكل حركة وظيفة

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَصْلَحَ بِآلِهِمْ (2) ذَلِكَ يَأْتِي الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3)

وأثرا في كيان هذا الوجود , وفي قيامه بدوره , وانتهائه إلى غايته .

وفي الجانب الآخر: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم). . والإيمان الأول يشمل الإيمان بما نزل على محمد . ولكن السياق يبرزه ويظهره ليصفه بصفته: (وهو الحق من ربهم) ويؤكد هذا المعنى ويقرره . وإلى جوار الإيمان المستكن في الضمير , العمل الظاهر في الحياة . وهو ثمرة الإيمان الدالة على وجوده وحيويته وانبعائه .

وهؤلاء: (كفر عنهم سيئاتهم). . في مقابل إبطال أعمال الذين كفروا ولو كانت حسنة في شكلها وظاهرها . وبينما يبطل العمل ولو كان صالحا من الكافرين , فإن السيئة تغفر للمؤمنين . وهو تقابل تام مطلق يبرز قيمة الإيمان وقدره عند الله , وفي حقيقة الحياة . .

(وأصلح بالهم). . وإصلاح البال نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر . والتعبير يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام . ومتى صلح البال , استقام الشعور والتفكير , واطمأن القلب والضمير , وارتاحت المشاعر والأعصاب , ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام . . وماذا بعد هذا من نعمة أو متاع ? ألا إنه الأفق المشرق الوضيء الرفاف .

ولم كان هذا وكان ذاك ? إنها ليست المحاباة . وليست المصادفة . وليس الجراف . إنما هو أمر له أصله الثابت , المرتبط بالناموس الأصيل الذي قام عليه الوجود يوم خلق الله السماوات والأرض بالحق , وجعل الحق هو الأساس:

(ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل , وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم). .

والباطل ليست له جذور ضاربة في كيان هذا الوجود ; ومن ثم فهو ذاهب هالك ; وكل من يتبعه وكل ما يصدر عنه ذاهب هالك كذلك . ولما كان الذين كفروا اتبعوا الباطل فقد ضلت أعمالهم , ولم يبق لهم منها شيء ذو غناء .

والحق ثابت تقوم عليه السماوات والأرض , وتضرب جذوره في أعماق هذا الكون . ومن ثم يبقى كل ما يتصل به ويقوم عليه . ولما كان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم , فلا جرم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم .

فهو أمر واضح مقرر يقوم على أصوله الثابتة , ويرجع إلى أسبابه الأصلية . وما هو فلتة ولا مصادفة ولا جزاف (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم). وكذلك يضع لهم القواعد التي يقيسون إليها أنفسهم وأعمالهم . فيعلمون المثل الذي ينتمون إليه ويقاسون عليه . ولا يحتارون في الوزن والقياس !

الدرس الثاني: 4 - 6 من أحكام قتال الكفار وثواب الشهداء ?

ذلك الأصل الذي قرره الآية الأولى في السورة , يرتب عليه توجيه المؤمنين لقتال الكافرين . فهم على الحق الثابت الذي ينبغي أن يتقرر في الأرض , ويستعلي ويهيمن على أقدار الناس والحياة ليصل الناس بالحق وليقيم الحياة على أساسه . والذين كفروا على الباطل الذي ينبغي أن يبطل وتذهب آثاره من الحياة:

(فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . فإما منا بعد وإما فداء . حتى تضع الحرب أوزارها) . .

واللقاء المقصود في الآية هنا هو اللقاء للحرب والقتال لا مجرد اللقاء . فحتى نزول هذه السورة كان المشركون في الجزيرة منهم المحارب ومنهم المعاهد ; ولم تكن بعد قد نزلت سورة "براءة" التي تنهي عهد المشركين المحددة

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَخِنْتُمُوهُمْ فَاسُدُّوا الوُثُقَ فَإِمَّا مَثًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللّٰهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6)

الأجل إلى أجلها , والمطلقة الأجل إلى أربعة أشهر ; وتأمّر بقتل المشركين بعد ذلك أنى وجدوا في أنحاء الجزيرة - قاعدة الإسلام - أو يسلموا . كي تخلص القاعدة للإسلام .

وضرب الرقاب المأمور به عند اللقاء يجيء بعد عرض الإسلام عليهم وإبائهم له طبعاً . وهو تصوير لعملية القتل بصورتها الحسية المباشرة , وبالحركة التي تمثلها , تمشياً مع جو السورة وظلالها .

(حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق) . .

والإثخان شدة التقتيل , حتى تتحطم قوة العدو وتتهاوى , فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع . وعندئذ - لا قبله - يؤسر من استأسر ويشد وثاقه . فأما والعدو ما يزال قويا فالإثخان والتقتيل يكون الهدف لتحطيم ذلك الخطر .

وعلى هذا لا يكون هناك اختلاف - كما رأى معظم المفسرين - بين مدلول هذه الآية , ومدلول آية الأنفال التي عاتب الله فيها الرسول [ ص ] والمسلمين لاستكثارهم من الأسرى في غزوة بدر . والتقتيل كان أولى . وذلك حيث يقول تعالى:(ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض , تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة , والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) . . فالإثخان أولا لتحطيم قوة العدو وكسر شوكته ; وبعد ذلك يكون الأسر . والحكمة ظاهرة , لأن إزالة القوة المعتدية المعادية للإسلام هي الهدف الأول من القتال . وبخاصة حين كانت القوة العدوية للأمة المسلمة قليلة محدودة . وكانت الكثرة للمشركين . وكان قتل محارب يساوي شيئا كبيرا في ميزان القوى حينذاك . والحكم ما يزال ساريا في عمومه في كل زمان بالصورة التي تكفل تحطيم قوة العدو , وتعجيزه عن الهجوم والدفاع .

فأما الحكم في الأسرى بعد ذلك , فتحدده هذه الآية . وهي النص القرآني الوحيد المتضمن حكم الأسرى:

(فإما منا بعد وإما فداء) . .

أي إما أن يطلق سراحهم بعد ذلك بلا مقابل من مال أو من فداء لأسرى المسلمين . وإما أن يطلق مقابل فدية من مال أو عمل أو في نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين .

وليس في الآية حالة ثالثة . كالاسترقاق أو القتل . بالنسبة لأسرى المشركين .

ولكن الذي حدث فعلا أن رسول الله [ ص ] والخلفاء من بعده استرققوا بعض الأسرى - وهو الغالب - وقتلوا بعضهم في حالات معينة .

ونحن ننقل هنا ما ورد حول هذه الآية في كتاب "أحكام القرآن للإمام الجصاص الحنفي" ونعلق على ما نرى التعليق عليه في ثناياه . قبل أن نقرر الحكم الذي نراه:

قال الله تعالى: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) قال أبو بكر قد اقتضى ظاهره وجوب القتل لا غير إلا بعد الإثخان . وهو نظير قوله تعالى: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) . . "وهذا صحيح فليس بين النصين خلاف" .

حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن الحكم قال: حدثنا جعفر بن محمد بن اليمان . قال: حدثنا أبو عبيد . قال: حدثنا عبدالله بن صالح , عن معاوية بن صالح , عن علي بن أبي طلحة . عن ابن عباس في قوله تعالى (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) . قال: ذلك يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل , فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى بعد هذا في الأسارى: (فإما منا بعد وإما فداء) . . فجعل الله النبي والمؤمنين في الأسارى بالخيار . إن شاءوا قتلهم , وإن شاءوا استعبدهم , وإن شاءوا فادوهم . شك أبو عبيد في . . وإن شاءوا استعبدهم . . "والاستعباد مشكوك في صدور القول به عن ابن عباس فتركه . وأما جواز القتل فلا نرى له سندا في الآية وإنما نصها المن أو الفداء .

وحدثنا جعفر بن محمد بن محمد قال: حدثنا أبو عبيد , قال: حدثنا أبو مهدي وحجاج , كلاهما عن سفيان . قال: سمعت السدي يقول في قوله: (فإما منا بعد وإما فداء) . . قال: هي منسوخة , نسخها قوله: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم): قال أبو بكر: أما قوله:

(فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب). . . وقوله تعالى: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض). . . وقوله: (فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم). . . فإنه جائز أن يكون حكما ثابتا غير منسوخ . وذلك لأن الله تعالى أمر نبيه [ ص ] بالإثخان في القتل وحظر عليه الأسر - إلا بعد إذلال المشركين وقمعهم - وكان ذلك وقت قلة عدد المسلمين وكثرة عدد عدوهم من المشركين , فمتى أثخن المشركون وأذلوا بالقتل والتشريد جاز الاستبقاء . فالواجب أن يكون هذا حكما ثابتا إذا وجد مثل الحال التي كان عليها المسلمون في أول الإسلام . "ونقول: إن الأمر بقتل المشركين حيث وجدوا خاص بمشركي الجزيرة . بينما النص في سورة محمد عام . فمتى تحقق الإثخان في الأرض جاز أخذ الأسارى . وهذا ما جرى عليه الخلفاء بعد رسول الله [ ص ] وبعد نزول سورة براءة بطبيعة الحال , ولم يقتلوهم إلا في حالات معينة سيأتي بيانها" . .

وأما قوله: (فإما منا بعد وإما فداء). . . ظاهره يقتضي أحد شيئين: من أو فداء . وذلك ينفي جواز القتل . وقد اختلف السلف في ذلك . حدثنا حجاج عن مبارك بن فضالة عن الحسن أنه كره قتل الأسير , وقال: من عليه أو فاده . وحدثنا جعفر قال: حدثنا أبو عبيد قال: أخبرنا هشيم . قال: أخبرنا أشعث قال: سألت عطاء عن قتل الأسير فقال: من عليه أو فاده قال: وسألت الحسن . قال: يصنع به ما صنع رسول الله [ ص ] بأسارى بدر , يمن عليه أو يفادي به . وروي عن ابن عمر أنه دفع إليه عظيم من عظماء اصطخر ليقته , فأبى أن يقتله , وتلا قوله: (فإما منا بعد وإما فداء). . . وروي أيضا عن مجاهد ومحمد بن سيرين كراهة قتل الأسير . وقد روينا عن السدي أن قوله: (فإما منا بعد وإما فداء) منسوخ بقوله: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم). وروي مثله عن ابن جريج . حدثنا جعفر قال: حدثنا أبو عبيد قال: حدثنا حجاج , عن ابن جريج , قال: هي منسوخة . وقال: قتل رسول الله [ ص ] عقبة ابن أبي معيط يوم بدر صبرا , قال أبو بكر: اتفق فقهاء الأمصار على جواز قتل الأسير لا نعلم بينهم خلافا فيه , وقد تواترت الأخبار عن النبي [ ص ] في قتله الأسير , منها قتله عقبة بن أبي معيط , والنضر بن الحارث بعد الأسر يوم بدر . وقتل يوم أحد أبا عزة الشاعر بعدما أسر . وقتل بني قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ , فحكم فيهم بالقتل وسبي الذرية . ومن على الزبير بن باطا من بينهم , وفتح خيبر بعضها صلحا وبعضها عنوة , وشرط على ابن أبي الحقيق ألا يكتم شيئا , فلما ظهر على خيانتته وكتمانه قتله . وفتح مكة وأمر بقتل هلال بن خطل , ومقيس بن حبابة , وعبد الله بن أبي سرح , وآخرين , وقال: "اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة" . ومن على أهل مكة ولم يغنم أموالهم . وروي عن صالح بن كيسان عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه عبد الرحمن بن عوف , أنه سمع أبا بكر الصديق يقول: "وددت أني يوم أتيت بالفجاءة لم أكن أحرقته , وكنت قتلته سريحا أو أطلقته نجيا" . وعن أبي موسى أنه قتل دهقان السوس بعدما أعطاه الأمان على قوم سماهم ونسي نفسه فلم يدخلها في الأمان فقتله . فهذه آثار متواترة عن النبي [ ص ] وعن الصحابة في جواز قتل الأسير وفي استبقائه . واتفق فقهاء الأمصار على ذلك . "وجواز القتل لا يؤخذ من الآية , ولكن يؤخذ من عمل رسول الله [ ص ] وبعض الصحابة . وتتبع الحالات التي وقع فيها القتل يعطي أنها حالات خاصة , وراءها أسباب معينة غير مجرد التعرض للقتال والأسر . فالنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط كلاهما كان له موقف خاص في إيذاء رسول الله [ ص ] وإيذاء دعوته . وكذلك أبو عزة الشاعر , ولبنى قريظة كذلك موقف خاص بارتضائهم حكم سعد بن معاذ سلفا . وهكذا نجد في جميع الحالات أسبابا معينة تفرد هذه الحالات من الحكم العام للأسرى الذي تقرره الآية: (فإما منا بعد وإما فداء). .

وإنما اختلفوا في فدائه , فقال أصحابنا جميعا "يعني الحنفية": لا يفادى الأسير بالمال , ولا يباع السبي من أهل الحرب فيردوا حربا . وقال أبو حنيفة: لا يفادون بأسرى المسلمين أيضا , ولا يردون حربا أبدا . وقال أبو يوسف ومحمد: لا بأس أن يفادى أسرى المسلمين بأسرى المشركين . وهو قول الثوري والأوزاعي , وقال الأوزاعي: لا بأس ببيع السبي من أهل الحرب , ولا يباع الرجال إلا أن يفادى بهم المسلمون . وقال المزني عن الشافعي: للإمام أن يمن على الرجال الذين ظهر عليهم أو يفادي بهم , فأما المجيزون للفداء بأسرى المسلمين وبالمال فإنهم احتجوا بقوله: (فأما منا بعد وإما فداء) وظاهره يقتضي جوازه بالمال وبالمسلمين ; وبأن النبي [ ص ] فدى أسارى بدر بالمال . ويحتجون للفداء بالمسلمين بما روى ابن المبارك , عن معمر , عن أيوب , عن أبي قلابة , عن أبي المهلب , عن عمران ابن حصين . قال: أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبي [ ص ] وأسرا أصحاب النبي [ ص ] رجلا من بني عامر ابن صعصعة ; فمر به النبي [ ص ] وهو موثق , فناده , فأقبل إليه رسول الله [ ص ] فقال: علام أحبس ? قال: "بجريرة حلفائك" . فقال الأسير: إني مسلم , فقال النبي [ ص ]: "لو قلتها وأنت تملك أمرك لأفلحت كل الفلاح" . ثم مضى رسول الله [ ص ] فناده أيضا , فأقبل , فقال: إني جائع فأطعمني . فقال النبي [ ص ]: "هذه حاجتك" . ثم إن النبي [ ص ] فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما . (وحجة القائلين بالفداء أرجح في تقديرنا من حجة أصحاب الإمام الجصاص على الإختلاف في الفداء بالمال أو بأسرى المسلمين).

وقد ختم الإمام الجصاص القول في المسألة بترجيح رأي أصحابه الحنفية قال: وأما ما في الآية من ذكر المن والفداء , وما روي في أسارى بدر فإن ذلك منسوخ بقوله: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم). . وقد روينا ذلك عن السدي وابن جريج . وقوله تعالى: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) إلى قوله: (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون). فتضمنت الآيتان وجوب القتال للكفار حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية . والفداء بالمال أو بغيره ينافي ذلك . ولم يختلف أهل التفسير ونقله الآثار أن سورة "براءة" بعد سورة "محمد" [ ص ] فوجب أن يكون الحكم المذكور فيها ناسخا للفداء المذكور في غيرها . . "وقد سبق القول بأن هذا القتل للمشركين - أو الإسلام - مقصود به مشركو الجزيرة فهو حكم خاص بهم . أما غيرهم خارجها فتقبل منهم الجزية كما تقبل من أهل الكتاب . وقبول الجزية عند التسليم لا ينفي أن يقع الأسرى في أيدي المسلمين قبل التسليم . فهؤلاء الأسرى ما الحكم فيهم ? نقول: إنه يجوز المن عليهم إذا رأى الإمام المصلحة , أو الفداء بهم بالمال أو بالمسلمين , إذا ظل قومهم قوة لم تستسلم بعد ولم تقبل الجزية . فأما عند الاستسلام للجزية فالأمر منته بطبيعته وهذه حالة أخرى , فحكم الأسرى يظل ساريا في الحالة التي لم تنته بالجزية).

والخلاصة التي ننتهي إليها أن هذا النص هو الوحيد المتضمن حكم الأسرى . وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى غير حالة الأسر . وأنه هو الأصل الدائم للمسألة . وما وقع بالفعل خارجا عنه كان لمواجهة حالات خاصة وأوضاع وقتية . فقتل بعض الأسرى كان في حالات فردية يمكن أن يكون لها دائما نظائر ; وقد أخذوا بأعمال سابقة على الأسر , لا بمجرد خروجهم للقتال . ومثال ذلك أن يقع جاسوس أسيرا فيحاكم على الجاسوسية لا على أنه أسير . وإنما كان الأسر مجرد وسيلة للقبض عليه .

ويبقى الإسترقاق . وقد سبق لنا في مواضع مختلفة من هذه الضلال القول بأنه كان لمواجهة أوضاع عالمية قائمة , وتقاليد في الحرب عامة . ولم يكن ممكنا أن يطبق الإسلام في جميع الحالات النص العام: (فأما منا بعد وإما فداء). . في الوقت الذي يسترق أعداء الإسلام من يأسرونهم من المسلمين . ومن ثم طبقه الرسول [ ص ] في

بعض الحالات فأطلق بعض الأسارى منا . وفادى ببعضهم أسرى المسلمين , وفادى بعضهم بالمال . وفي حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لا تعالج بغير هذا الإجراء .

فإذا حدث أن اتفقت المعسكرات كلها على عدم استرقاق الأسرى , فإن الإسلام يرجع حينئذ إلى قاعدته الإيجابية الوحيدة وهي: (فإما منا بعد وإما فداء) لانقضاء الأوضاع التي كانت تقضي بالاسترقاق . فليس الاسترقاق حتميا , وليس قاعدة من قواعد معاملة الأسرى في الإسلام .

وهذا هو الرأي الذي نستوحيه من النص القرآني الحاسم . ومن دراسة الأحوال والأوضاع والأحداث . . والله الموفق للصواب .

ويحسن أن يكون مفهوما أنني أجنح إلى هذا الرأي لأن النصوص القرآنية واستقراء الحوادث وظروفها يؤيده لا لأنه يهجس في خاطري أن استرقاق الأسرى تهمة أحاول أن أبرىء الإسلام منها ! إن مثل هذا الخاطر لا يهجس في نفسي أبدا , فلو كان الإسلام رأى هذا لكان هو الخير , لأنه ما من إنسان يعرف شيئا من الأدب يملك أن يقول: إنه يرى خيرا مما يرى الله . إنما أنا أسير مع نص القرآن وروحه فأجنح إلى ذلك الرأي بإيحاء النص واتجاهه .

وذلك . . - أي القتال وضرب الرقاب وشد الوثاق واتباع هذه القاعدة في الأسرى - (حتى تضع الحرب أوزارها) . أي حتى تنتهي الحرب بين الإسلام وأعدائه المناوئين له . فهي القاعدة الكلية الدائمة . ذلك أن " الجهاد ماض إلى يوم القيامة " كما يقول رسول الله [ ص ] حتى تكون كلمة الله هي العليا .

والله لا يكلف الذين آمنوا هذا الأمر , ولا يفرض عليهم هذا الجهاد , لأنه يستعين بهم - حاشاه - على الذين كفروا . فهو سبحانه قادر على أن يقضي عليهم قضاء مباشرا ; وإنما هو ابتلاء الله لعباده بعضهم ببعض ; الإبتلاء الذي تقدر به منازلهم:

(ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم , ولكن ليلو بعضكم بعض . والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم , ويدخلهم الجنة عرفها لهم) . .

إن هؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله , وأمثالهم في الأرض كلها في كل زمان من البغاة الطغاة المفسدين , الذين يظهرون في ثوب البطش والاستكبار , ويتراءون لأنفسهم وللضالين من أتباعهم قادرين أقوياء . إن هؤلاء جميعا حفنة من الخلق . تعيش على ظهر هذه الهباءة الصغيرة المسماة بالأرض , بين هذه الكواكب والنجوم والمجموعات الفلكية والمجرات والعوالم التي لا يعلم عددها ولا مداها إلا الله في هذا الفضاء الذي تبدو فيه هذه المجرات والعوالم نقطا متناثرة , تكاد تكون ضائعة , لا يمسكها ولا يجمعها ولا ينسقها إلا الله .

فلا يبلغ هؤلاء ومن وراءهم من الأتباع , بل لا يبلغ أهل هذه الأرض كلها , أن يكونوا نمالا صغيرة . لا بل إنهم لا يبلغون أن يكونوا هباء تتقاذفه النسيمات . لا بل إنهم لا يبلغون شيئا أصلا حين يقفون أمام قوة الله .

إنما يتخذ الله المؤمنين - حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد إثنائهم - إنما يتخذهم سبحانه ستارا لقدرته . ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرة . كما انتصر من



ثم نقف أمام هذه الحقيقة الهائلة . . حقيقة حياة الشهداء في سبيل الله . . فهي حقيقة مقررة من قبل في قوله تعالى: (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون). . ولكنها تعرض هنا عرضا جديدا . تعرض في حالة امتداد ونماء في طريقها الذي غادرت الحياة الدنيا وهي تسلكه وتتوخاه . طريق الطاعة والهداية والتجرد والنقاء:

(سيهديهم ويصلح بالهم):

فالله ربهم الذي قتلوا في سبيله , يظل يتعهدهم بالهداية - بعد الاستشهاد - ويتعهدهم بإصلاح البال , وتصفية الروح من بقية أوشاب الأرض ; أو يزيد لها صفاء لتتناسق مع صفاء الملاء الأعلى الذي سعدت إليه , وإشراقه وسناه . فهي حياة مستمرة في طريقها لم تنقطع إلا فيما يرى أهل الأرض المحجوبون . وهي حياة يتعهد بها الله ربها في الملاء الأعلى . ويزيدها هدى . ويزيدها صفاء , ويزيدها إشراقا . وهي حياة نامية في ظلال الله . وأخيرا يحقق لهم ما وعدهم:

(ويدخلهم الجنة عرفها لهم). .

وقد ورد حديث عن تعريف الله الجنة للشهداء رواه الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا زيد بن نمر الدمشقي , حدثنا ابن ثوبان , عن أبيه , عن مكحول , عن كثير بن مرة , عن قيس الجذامي - رجل كانت له صحبة - قال: قال رسول الله [ ص ]: " يعطى الشهيد ست خصال: عند أول قطرة من دمه , تكفر عنه كل خطيئة ; ويرى مقعده من الجنة , ويزوج من الجور العين , ويأمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر , ويحلى حلة الإيمان " . . [ تفرد به أحمد . وقد روي حديثا آخر قريبا من هذا المعنى . وفيه النص على رؤية الشهيد لمقعده من الجنة . أخرجه الترمذي وصححه ابن ماجه ] .

فهذا تعريف الله الجنة للشهداء في سبيله . وهذه هي نهاية الهداية الممتدة , وإصلاح البال المستأنف بعد مغادرتهم لهذه الأرض . ونماء حياتهم وهداهم وصلاتهم هناك عند الله .

الدرس الثالث: 7 - 9 نصر الله للمؤمنين وإحباطه لأعمال الكافرين

وفي ظل هذه الكرامة للذين قتلوا في سبيل الله . وفي ظل ذلك الرضى , وتلك الرعاية , وبلوغ ذلك المقام . يحرض الله المؤمنين على التجرد لله , والاتجاه إلى نصرته نهجه في الحياة ; ويعدهم على هذا النصر والتثبيت في المعركة ; والتعس والضلال لأعدائهم وأعدائه:

(يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم). .

وكيف ينصر المؤمنون الله , حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت ?

إن لله في نفوسهم أن تتجرد له , وألا تشرك به شيئا , شركا ظاهرا أو خفيا , وألا تستبقي فيها معه أحدا ولا شيئا , وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى , وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها , وسرها وعلانيتها , ونشاطها كله وخلقاتها . . فهذا نصر الله في ذوات النفوس .

وان لله شريعة ومنهاجا للحياة , تقوم على قواعد وموازن وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة . ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه , ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء , فهذا نصر الله في واقع الحياة .

ونقف لحظة أمام قوله تعالى: (والذين قتلوا في سبيل الله). . وقوله: (إن تنصروا الله).

وفي كلتا الحالتين . حالة القتل . وحالة النصر . يشترط أن يكون هذا لله وفي سبيل الله . وهي لفظة بديهية , ولكن كثيرا من الغبش يغطي عليها عندما تنحرف العقيدة في بعض الأجيال . وعندما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص , وتنحرف عن معناها الوحيد القويم .

إنه لا جهاد , ولا شهادة , ولا جنة , إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده , والموت في سبيله وحده , والنصرة له وحده , في ذات النفس وفي منهج الحياة .

لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا . وأن تهيمن شريعته ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم , وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء .

عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: سئل رسول الله [ ص ] عن الرجل يقاتل شجاعة , ويقاقل حمية , ويقاقل رياء . أي ذلك في سبيل الله ? فقال: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " .

وليس هنالك من راية أخرى , أو هدف آخر , يجاهد في سبيله من يجاهد , ويستشهد دونه من يستشهد , فيحق له وعد الله بالجنة . إلا تلك الراية وإلا هذا الهدف . من كل ما يروج في الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات !

وبحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفظة البديهية , وأن يخلصوها في نفوسهم من الشوائب التي تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة , وألا يلبسوا برايتهم راية , ولا يخلطوا بتصورهم تصورا غريبا على طبيعة العقيدة .

لا جهاد إلا لتكون كلمة الله هي العليا . العليا في النفس والضمير . والعليا في الخلق والسلوك . والعليا في الأوضاع والنظم . والعليا في العلاقات والإرتباطات في كل أنحاء الحياة . وما عدا هذا فليس لله . ولكن للشيطان . وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد .

وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر من عند الله ولا تثبيت للأقدام . وإنما هو الغبش وسوء التصور والانحراف .

وإذا عز على غير أصحاب الدعوة لله أن يتخلصوا من هذا الغبش وسوء التصور والانحراف , فلا أقل من أن يخلص الدعوة إلى الله أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذي لا يتفق مع البديهة الأولى في شرط الله . .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ  
وَاصِلٌ أَعْمَالُهُمْ (8) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ (9)

وبعد فهذا شرط الله على الذين آمنوا . فأما شرطه لهم فهو النصر وتثبيت الأقدام . وعد  
الله لا يخلفه . فإذا تخلف فترة ; فهو أجل مقدر لحكمة أخرى تتحقق مع تحقق النصر  
والتثبيت . ذلك حين يصح أن المؤمنين وفوا بالشرط ثم تخلف عنهم - فترة - نصر الله .

ثم نقف لحظة أمام لفظة خاصة في التعبير: (ينصركم . ويثبت أقدامكم) . .

إن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر , ويكون سببا فيه . وهذا صحيح  
ولكن تأخير ذكره في العبارة يوحي بأن المقصود معنى آخر من معاني التثبيت . معنى  
التثبيت على النصر وتكاليفه . فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان , وبين  
الحق والضلال . فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة . للنصر تكاليفه في  
عدم الزهوبه والبطر . وفي عدم التراخي بعده والتهاون . وكثير من النفوس يثبت على  
المحنة والبلاء . ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء . وصلاح القلوب وثباتها  
على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر . ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن .  
والعلم لله .

(والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم) . .

وذلك عكس النصر وتثبيت الأقدام . فالدعاء بالتعس قضاء من الله سبحانه بالتعاسة  
والخيبة والخذلان وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء . .

(ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) . .

وهو تصوير لما يعتمل في قلوبهم ويختلج في نفوسهم من الكراهية لما أنزل الله من  
قرآن وشريعة ومنهج واتجاه . وهذا هو الذي يدفع بهم إلى الكفر والعناد والخصومة  
والملاحاة . وهي حالة كثير من النفوس الفاسدة التي تكره بطبعها ذلك النهج السليم  
القويم , وتصادمه من داخلها , بحكم مغايرة طبيعتها لطبيعته . وهي نفوس يلتقي بها  
الإنسان كثيرا في كل زمان وفي كل مكان , ويحس منها النفرة والكراهية لهذا الدين  
وما يتصل به ; حتى إنها لتفرغ من مجرد ذكره كما لو كانت قد لذعتها العقارب ! وتتجنب  
أن يحيى ذكره أو الإشارة إليه فيما تسمع حولها من حديث ! ولعلنا نشاهد في هذه الأيام  
حالة من هذا الطراز لا تخفى على الملاحظة !

وكان جزاء هذه الكراهية لما أنزل الله , أن أحبط الله أعمالهم . وإحباط الأعمال تعبير  
تصويري على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير . فالحبوط انتفاخ بطون  
الماشية عند أكلها نوعا من المرعى سام . ينتهي بها الى الموت والهلاك . وكذلك  
انتفخت أعمالهم وورمت وانبعثت . . ثم انتهت إلى الهلاك والضياع ! إنها صورة وحركة  
, ونهاية مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل الله ثم تعاجبوا بالأعمال الضخام . المنتفخة  
كبطون الأنعام , حين ترعى من ذلك النبت السام !

الدرس الرابع: 10 - 11 لفت نظر الكفار للإعتبار من دمار السابقين

ثم يلوي أعناقهم إلى مصارع الغابرين قبلهم في شدة وعنف:

أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ? دمر الله عليهم .  
وللكافرين أمثالها . .

وهي لفظة عنيفة مروعة ، فيها ضجة وفرقة . وفيها مشهد للذين من قبلهم يدمر عليهم كل ما حولهم ، وكل ما لهم ، فإذا هو أنقاض متراكمة ، وإذا هم تحت هذه الأنقاض المتراكمة . وذلك المشهد الذي يرسمه التعبير

أَقْلَمُ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ  
وَاللَّكَافِرِينَ أَمْثَلَهَا (10) ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11)  
إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوَى لَهُمْ (12)

مقصود بصورته هذه وحركته ، والتعبير يحمل في إيقاعه وجرسه صورة هذا المشهد وفرقته في انقضاضه وتحطمه !

وعلى مشهد التدمير والتحطيم والردم ، يلوح للحاضرين من الكافرين ، ولكل من يتصف بهذه الصفة بعد ، بأنها في انتظارهم . هذه الوقعة المدمرة التي تدمر عليهم كل شيء وتدفنهم بين الأنقاض: (وللكافرين أمثالها)!

وتفسير هذا الأمر الهائل المروع الذي يدمر على الكافرين وينصر المؤمنين هو القاعدة الأصلية الدائمة:

(ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم) . .

ومن كان الله مولاه وناصره فحسبه ، وفيه الكفاية والغناء ؛ وكل ما قد يصيبه إنما هو ابتلاء وراعه الخير ، لا تخليا من الله عن ولايته له ، ولا تخلفا لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده . ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له ، ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء . فهو في النهاية مضيق عاجز ؛ ولو جمعت له كل أسباب الحماية وكل أسباب القوة التي يعرفها الناس !

الدرس الخامس: 12 مقابلة بين حياة وزراء المؤمنين والكافرين

ثم يوازن بين نصيب الذين آمنوا ونصيب الذين كفروا من المتاع بعدما بين نصيب هؤلاء وهؤلاء فيما يشتر بينهم من قتال ونزال . مع بيان الفارق الأصيل بين متاع ومتاع:

إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم . .

والذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون في الأرض أحيانا من أطيب المتاع ؛ ولكن الموازنة هنا إنما تقوم بين النصيب الحقيقي الضخم للمؤمنين - وهو نصيبهم في الجنة - والنصيب الكلي للكافرين الذي لا نصيب لهم سواه .

ونصيب المؤمنين يتلقونه من يد الله في جنات تجري من تحتها الأنهار . فالله هو الذي يدخلهم . وهو إذن نصيب كريم علوي رفيع . وهم ينالونه من بين يدي الله في علاه جزاء على الإيمان والصلاح ، متناسقا في رفعتهم وكرامتهم مع الإرتفاع المنطلق من الإيمان والصلاح .

ونصيب الذين كفروا متاع وأكل (كما تأكل الأنعام). . وهو تصوير زري , يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه ; ويلقي ظلال الأكل الحيواني الشره , والمتاع الحيواني الغليظ . بلا تذوق , وبلا تعفف عن جميل أو قبيح . . إنه المتاع الذي لا ضابط له من إرادة , ولا من اختيار , ولا حارس عليه من تقوى , ولا رادع عنه من ضمير .

والحيوانية تتحقق في المتاع والأكل , ولو كان هناك ذوق مرهف للطعوم , وحس مدرب في اختيار صنوف المتاع , كما يتفق هذا لكثير من الناشئين في بيوت النعمة والثراء . وليس هذا هو المقصود . إنما المقصود هو حساسية الإنسان الذي يملك نفسه وإرادته , والذي له قيم خاصة للحياة ; فهو يختار الطيب عند الله . عن إرادة لا يخضعها ضغط الشهوة , ولا يضعفها هتاف اللذة . ولا تحسب الحياة كلها مائدة طعام , وفرصة متاع ; بلا هدف بعد ذلك ولا تقوى فيما يباح وما لا يباح !

إن الفارق الرئيسي بين الإنسان والحيوان: أن للإنسان إرادة وهدفا وتصورا خاصا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة , المتلقاة من الله خالق الحياة . فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه , وأهم المزايا التي من أجلها كرمه الله .

وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكِيَاهُمْ فَلَا تَاصِرَ لَهُمْ (13)  
أَقَمَنَ كَانَ عَلَى بَيْتٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14) مَثَلُ الْجَنَّةِ  
الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّم يَتَغَيَّر طَعْمُهُ وَأَنهَارٌ مِّن  
خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُل الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ  
كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15)  
الدرس السادس: 13 تهديد قريش بالهلاك لإخراجهم الرسول

وتعترض سلسلة الموازنات بين الذين آمنوا والذين كفروا لفته إلى القرية التي أخرجت الرسول [ ص ] وموازنة بينها وبين القرى الهالكة وكانت أشد قوة منها:

وكأي من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر لهم . .

وهي آية يروى أنها نزلت في الطريق بين مكة والمدينة في أثناء رحلة الخروج والهجرة , تسلية للرسول [ ص ] وتسرية عنه ; وتهوينا من شأن المشركين الجبارين الذين وقفوا في وجه الدعوة , وأذوا أصحابها , حتى هاجروا من أرضهم وأهلهم وأموالهم فرارا بعقيدتهم .

الدرس السابع: 14 - 15 لقطات من نعيم الجنة للمؤمنين

ثم يمضي في الموازنة بين حال الفريقين ; ويعلل لم كان الله ولي المؤمنين يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار في الآخرة , بعد النصر والكرامة في الدنيا ? ولم كان الذين كفروا لا مولى لهم معرضين للهلاك في الدنيا - بعد حياة حيوانية هابطة - وللعذاب في الآخرة والثوي في النار والإقامة:

(أفمن كان على بينة من ربه , كمن زين له سوء عمله , واتبعوا أهواءهم ?) . .

فهو فارق أصيل في الحالة التي عليها الفريقان , وفي المنهج والسلوك سواء . فالذين آمنوا على بينة من ربهم . . رأوا الحق وعرفوه , واستيقنوا من مصدره واتصلوا بربهم

فتلقوا عنه , وهم علي يقين مما يتلقون . غير مخدوعين ولا مضللين . والذين كفروا زين لهم سوء عملهم , فأوه حسنا وهو سيء ; ولم يروا ولم يستيقنوا , (واتبعوا أهواءهم). بلا ضابط يرجعون إليه , ولا أصل يقيسون عليه , ولا نور يكشف لهم الحق من الباطل .

أهؤلاء كهؤلاء ? إنهم يختلفون حالا ومنهجا واتجاها . فلا يمكن أن يتفوقوا ميزانا ولا جزاء ولا مصيرا !

وهذه صورة من صور التفرقة بين هؤلاء وهؤلاء في المصير:

(مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن , وأنهار من لبن لم يتغير طعمه , وأنهار من خمر لذة للشاربين , وأنهار من عسل مصفى ; ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم . كمن هو خالد في النار , وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم .?)

إن هذه الصورة الحسية من النعيم والعذاب ترد في مواضع من القرآن . وقد تجيء معها صور معنوية أو تجيء مجردة . كما أن صور النعيم والعذاب المجردة عن الحسيات تجيء في مواضع أخرى .

والله الذي خلق البشر , أعلم بمن خلق , وأعرف بما يؤثر في قلوبهم , وما يصلح لتربيتهم . ثم ما يصلح لنعيمهم ولعذابهم . والبشر صنوف , والنفوس ألوان , والطبائع شتى . تلتقي كلها في فطرة الإنسان , ثم تختلف وتتنوع بحسب كل إنسان . ومن ثم فصل الله ألوان النعيم والعذاب , وصنوف المتاع والآلام , وفق علمه المطلق بالعباد .

هنالك ناس يصلح لتربيتهم , ولاستجاشة همتهم للعمل كما يصلح لجزائهم ويرضي نفوسهم أن يكون لهم أنهار من ماء غير آسن , أو أنهار من لبن لم يتغير طعمه , أو أنهار من عسل مصفى , أو أنهار من خمر لذة للشاربين . أو صنوف من كل الثمرات . مع مغفرة من ربهم تكفل لهم النجاة من النار والمتاع بالجنات . . فلهؤلاء ما يصلح لتربيتهم , وما يليق لجزائهم .

وهنالك ناس يعبدون الله لأنهم يشكرونه على نعمه التي لا يحصونها . أو لأنهم يحبونه ويتقربون إليه بالطاعات تقرب الحبيب للحبيب . أو لأنهم يستحيون أن يراهم الله على حالة لا يحبها . ولا ينظرون وراء ذلك إلى جنة

وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَادَا قَالَ آيَفَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17)

أو إلى نار , ولا إلى نعيم أو عذاب على الإطلاق , وهؤلاء يصلح لهم تربية ويصلح لهم جزاء أن يقول الله لهم: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا). . أو أن يعلموا أنهم سيكونون: (في مقعد صدق عند مليك مقتدر). .

ولقد روي عن رسول الله [ ص ] أنه كان يصلي حتى تنفر رجلاه . فقالت له عائشة - رضي الله عنها - يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ? فقال [ ص ]: " يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورا ? " . .

وتقول رابعة العدوية: "أو لولم تكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد , ولم يخشه أحد ? " .  
وتجيب سفيان الثوري وقد سألها: ما حقيقة إيمانك ? تقول: " ما عبدته خوفا من ناره ,  
ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء . عبدته شوقا إليه " . .

وبين هذا اللون وذلك ألوان من النفوس والمشاعر والطباع . . وكلها تجد - فيما جعله  
الله من نعيم وعذاب , ومن ألوان الجزاء - ما يصلح للتربية في الأرض ; وما يناسب  
للجزاء عند الله .

والملاحظ عموما أن صور النعيم والعذاب ترق وتشف كلما ترقى السامعون في مراقبي  
التربية والتهذيب على مدى نزول القرآن . وحسب أنواع المخاطبين , والحالات المتنوعة  
التي كانت تخاطب بالآيات . وهي حالات ونماذج تتكرر في البشرية في جميع الأعصار .

وهنا نوعان من الجزاء: هذه الأنهار مع كل الثمرات مع المغفرة من الله . والنوع الآخر:  
(كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) . .

وهي صورة حسية عنيفة من العذاب , تناسب جو سورة القتال , وتتناسب مع غلظ  
طبيعة القوم . وهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام . فالجو جو متاع غليظ وأكل غليظ  
والجزاء ماء حميم ساخن وتقطيع للأمعاء , التي كانت تحش وتلتهم الأكل كالأنعام !

ولن يكون هؤلاء كهؤلاء في الجزاء , كما أنهم في الحال والمنهج ليسوا سواء . .

بهذا يختم الجولة الأولى التي بدأت بالهجوم عند افتتاح السورة , واستمرت في معركة  
متصلة , عنيفة , حتى الختام . .

الوحدة الثانية: 16 - 31 الموضوع: تحذير المؤمنين من مكائد المنافقين والكافرين  
مقدمة الوحدة

هذه الجولة مع المنافقين , وموقفهم إزاء شخص رسول الله [ ص ] وإزاء القرآن . ثم  
موقفهم من الجهاد الذي فرضه الله على المسلمين لإعلاء كلمة الله . وأخيرا موقفهم  
من اليهود وتآمرهم معهم سرا للإيقاع بالإسلام والمسلمين .

وحركة النفاق حركة مدنية , لم يكن لها وجود في مكة , لأنه لم يكن هناك ما يدعو إليها .  
فالمسلمون في مكة كانوا في موقف المضطهد , الذي لا يحتاج أحد أن يناقحه ! فلما  
أعز الله الإسلام والمسلمين بالأوس والخزرج في المدينة , وانتشاره في العشائر  
والبيوت بحيث لم يبق بيت إلا دخله الإسلام , اضطرت ناس ممن كرهوا لمحمد [ ص ]  
وللإسلام أن يعز ويستعلي , ولم يملكوا في الوقت ذاته أن يجهروا بالعداوة , اضطروا  
إلى التظاهر بالإسلام على كره . وهم يضمرون الحقد والبغضاء . ويتربصون بالرسول  
وأصحابه الدوائر . وعلى رأسهم عبدالله بن أبي بن سلول رأس النفاق المعروف .

وكان وجود اليهود في المدينة وتمتعهم فيها بقوة عسكرية وقوة اقتصادية وقوة تنظيمية  
في أول العهد المدني . وكراهيتهم كذلك لظهور محمد [ ص ] ودينه وأتباعه . كان وجود  
اليهود على هذا الوضع مشجعا للمنافقين . وسرعان ما جمعتهم البغضاء والحقد فأخذوا  
في حبك المؤامرات ودس الدسائس في كل مناسبة تعرض . فإن كان المسلمون في  
شدة ظهروا بعدائهم وجهروا ببغضائهم ; وإذا كانوا في رخاء ظلت الدسائس سرية

والمكايد في الظلام ! وكانوا إلى منتصف العهد المدني يؤلفون خطرا حقيقيا على الإسلام والمسلمين .

وقد تواتر ذكر المنافقين , ووصف دسائسهم , والتنديد بمؤامراتهم وأخلاقهم في السور المدنية ; كما تكرر ذكر اتصالهم باليهود , وتلقيهم عنهم , واشتراكهم معهم في بعض المؤامرات المحبوكة . وهذا أحد المواضع التي وردت فيها الإشارة إلى المنافقين , والإشارة كذلك إلى اليهود .

الدرس الأول: 16 - 19 من أساليب المنافقين في الكيد للمؤمنين وتهديدهم وتوجيه المؤمنين

ومنهم من يستمع إليك , حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم: ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم , واتبعوا أهوائهم . .

ولفظة: (ومنهم) تحتمل أن تكون إشارة للذين كفروا الذين كان يدور الحديث عنهم في الجولة السابقة في السورة: باعتبار أن المنافقين في الحقيقة فرقة من الكفار مستورة الظاهر , والله يتحدث عنها بحقيقتها في هذه الآية .

كما تحتمل أن تكون إشارة للمسلمين باعتبار أن المنافقين مندمجون فيهم , متظاهرون بالإسلام معهم . وقد كانوا يعاملون معاملة المسلمين بحسب ظاهرهم , كما هو منهج الإسلام في معاملة الناس .

ولكنهم في كلتا الحالتين هم المنافقون كما تدل عليه صفتهم في الآية وفعلهم , وكما يدل السياق في هذه الجولة من السورة , والحديث فيها عن المنافقين .

وسؤالهم ذاك بعد استماعهم للرسول [ ص ] والاستماع معناه السماع باهتمام - يدل على أنهم كانوا يتظاهرون تظاهرا بأنهم يلقون سمعهم وبالهم للرسول [ ص ] وقلوبهم لاهية غافلة . أو مطموسة مغلقة . كما أنه قد يدل من جانب آخر على الغمز الخفي اللئيم إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم: إن ما يقوله محمد لا يفهم , أو لا يعني شيئا يفهم . فهاهم أولاء مع استماعهم له , لا يجدون له فحوى ولا يمسون منه بشيء ! كذلك قد يعنون بهذا السؤال السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد [ ص ] وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه - كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم مع كل كلمة يتلفظ بها الرسول الكريم - فهم يسألونهم أن يعيدوا ألفاظه التي سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية . . وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين:

أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهوائهم . .

ذلك حال المنافقين , فأما حال المهتدين فهو على النقيض:

(والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم):

وترتيب الوقائع في الآية يستوقف النظر . فالذين اهتدوا بدأوا هم بالاهتداء , فكافأهم الله بزيادة الهدى , وكافأهم بما هو أعمق وأكمل: (وآتاهم تقواهم). . والتقوى حالة في القلب تجعله أبدا واجفا من هيبة الله , شاعرا برقابته , خائفا من غضبه , متطلعا إلى رضاه , متخرجاً من أن يراه الله على هيئة أو في حالة لا يرضاها . . هذه الحساسية

المرهفة هي التقوى . . وهي مكافأة يؤتيها الله من يشاء من عباده , حين يهتدون هم ويرغبون في الوصول إلى رضى الله .

والهدى والتقوى والحساسية حالة تقابل حالة النفاق والانطماس والغفلة في الآية السابقة .

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذْ جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ( 18 ) فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَوَاكُم (19)

ومن ثم يعود بعد هذه اللفتة إلى الحديث عن أولئك المنافقين المطموسين الغافلين , الذين يخرجون من مجلس رسول الله [ ص ] ولم يعوا مما قال شيئاً ينفعهم ويهديهم . ويستجيش قلوبهم للتقوى , ويذكرهم بما ينتظر الناس من حساب وجزاء:

(فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها . فأنى لهم - إذا جاءتهم - ذكراهم ؟).

وهي جذبة قوية تخرج الغافلين من الغفلة بعنف , كما لو أخذت بتلابيب مخمور وهزرتة هذا !

ماذا ينتظر هؤلاء الغافلون الذين يدخلون مجالس رسول الله [ ص ] ويخرجون منها , غير واعين , ولا حافظين , ولا متذكرين ؟ ماذا ينتظرون ؟ (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟) . . فتفجأهم وهم سادرون غارون غافلون .

هل ينظرون إلا الساعة ؟ (فقد جاء أشراطها). ووجدت علاماتها . والرسالة الأخيرة أضخم هذه العلامات , فهي إيذان بأنها النذارة الأخيرة قرب الأجل المضروب . وقد قال رسول الله [ ص ]: " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار بأصبعه السبابة والتي تليها . وإذا كان الزمن يلوح ممتدا منذ هذه الرسالة الأخيرة ; فإن أيام الله غير أيامنا . ولكنها في حساب الله قد جاءت الأشراط الأولى ; وما عاد لعاقل أن يغفل حتى تأخذه الساعة بغتة حيث لا يملك صحوا ولا ذكرا:

(فأنى لهم - إذا جاءتهم - ذكراهم ؟) . .

إنها الهزة القوية العنيفة التي تخرج الغافلين من غفلتهم ; والتي تتفق كذلك مع طابع السورة العنيف .

ثم يتجه الخطاب إلى الرسول [ ص ] ومن معه من المهتدين المتقين المتطلعين ; ليأخذوا طريقا آخر . طريق العلم والمعرفة والذكر والاستغفار , والشعور برقابة الله وعلمه الشامل المحيط ; ويعيشوا بهذه الحساسية يرتقبون الساعة وهم حذرون متأهبون:

(فاعلم أنه لا إله إلا الله ; واستغفر لذنبك , وللمؤمنين والمؤمنات ; والله يعلم متقلبيكم ومتواكم) . .

وهو التوجيه إلى تذكّر الحقيقة الأولى التي يقوم عليها أمر النبي [ ص ] ومن معه:

(فاعلم أنه لا إله إلا الله) . .

وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها في الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى:

واستغفر لذنبك . .

وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . ولكن هذا واجب العبد المؤمن الشاعر الحساس الذي يشعر أبدا بتقصيره مهما جهد ; وبشعر - وقد غفر له - أن الاستغفار ذكر وشكر على الغفران . ثم هو التلقين المستمر لمن خلف رسول الله [ ص ] ممن يعرفون منزلته عند ربه ; ويرونه يوجه إلى الذكر والاستغفار لنفسه . ثم للمؤمنين والمؤمنات . وهو المستجاب الدعوة عند ربه . فيشعرون بنعمة الله عليهم بهذا الرسول الكريم . وبفضل الله عليهم وهو يوجهه لأن يستغفر لهم , ليغفر لهم ! واللمسة الأخيرة في هذا التوجيه:

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَطَرَّ الْمَعْشِيَّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21) (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) . .

حيث يشعر القلب المؤمن بالطمأنينة وبالخوف جميعا . الطمأنينة وهو في رعاية الله حيثما تقلب أو ثوى . والخوف من هذا الموقف الذي يحيط به علم الله ويتعقبه في كل حالاته , ويطلع على سره ونجواه . .

إنها التربية . التربية باليقظة الدائمة والحساسية المرهفة , والتطلع والحذر والانتظار . .

الدرس الثاني: 20 - 24 جبن المنافقين وإفسادهم وتهديد الله لهم

وينتقل السياق إلى تصوير موقف المنافقين من الجهاد , وما يعتمل في نفوسهم من جبن وخور وذعر وهلع عند مواجهة هذا التكليف , ويكشف دخيلتهم في هذا الأمر , كما يكشف لهم ما ينتظرهم لو ظلوا على هذا النفاق , ولم يخلصوا ويستجيبوا وصدقوا الله عندما يعزم الأمر ويتحتم الجهاد:

(ويقول الذين آمنوا: لولا نزلت سورة . فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت , فأولى لهم طاعة وقول معروف , فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ! أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ?) . .

وتطلع الذين آمنوا إلى تنزيل سورة: إما أن يكون مجرد تعبير عن شوقهم إلى سورة جديدة من هذا القرآن الذي يحبونه , ويجدون في كل سورة منه زادا جديدا حيبيا . وإما أن يكون تطلعا إلى سورة تبين أمرا من أمور الجهاد , وتفصل في قضية من قضايا القتال تشغل بالهم . فيقولون: (لولا نزلت سورة!) . .

(فإذا أنزلت سورة محكمة). . فاصلة بينة لا تحتمل تأويلا - (وذكر فيها القتال). . أي الأمر به . أو بيان حكم المتخلفين عنه , أو أي شأن من شؤونه , إذا بأولئك (الذين في قلوبهم مرض). . وهو وصف من أوصاف المنافقين . . يفقدون تماسكهم , ويسقط عنهم ستار الرياء الذي يتسترون به , وينكشف جزعهم وضعف نفوسهم من مواجهة هذا التكليف , ويبدون في حالة تزري بالرجال , يصورها التعبير القرآني المبدع صورة فريدة كأنها معروضة للأنظار:

(رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت). .

وهو تعبير لا تمكن محاكاته , ولا ترجمته إلى أي عبارة أخرى . وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع . والضعف إلى حد الرعشة . والتخاذل إلى حد الغشية ! ويبقى بعد ذلك متفردا حافلا بالظلال والحركة التي تشغف الخيال ! وهي صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتصم بإيمان , ولا بفطرة صادقة , ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر . وهي هي طبيعة المرض والنفاق !

وبينما هم في هذا التخاذل والتهافت والانهيال تمتد إليهم يد الإيمان بالزاد الذي يقوي العزائم ويشد القوائم لو تناولوه في إخلاص:

(فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم). .

نعم . أولى لهم من هذه الفضيحة . ومن هذا الخور . ومن هذا الهلع . ومن هذا النفاق . . أولى لهم (طاعة وقول معروف). . طاعة تستسلم لأمر الله عن طمأنينة , وتنهض بأمره عن ثقة . وقول معروف يشي بنظافة الحس واستقامة القلب , وطهارة الضمير . وأولى لهم إذا عزم الأمر , وجد الجد , وواجهوا الجهاد أن يصدقوا الله . يصدقوه عزيمة , ويصدقوه شعورا . فيربط على قلوبهم , ويشد من عزائمهم , ويثبت أقدامهم , ويسير

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْجَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (23) أَقَلَّا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (25)

المشقة عليهم , ويهون الخطر الذي يتمثلونه غولا تغفر فاها لتلتهمهم ! ويكتب لهم إحدى الحسنين: النجاة والنصر , أو الاستشهاد والجنة . . هذا هو الأولى . وهذا هو الزاد الذي يقدمه الإيمان فيقوي العزائم ويشد القوائم , ويذهب بالفزع , ويحل محله الثبات والاطمئنان .

وبينما هو يتحدث عنهم يلتفت إليهم مباشرة ليخاطبهم مفرعا مهددا بسوء العاقبة لو قادهم حالهم هذا الى النكسة والتولي الى الكفر ; وخلع ذلك الستار الرقيق من الإسلام:

(فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟). .

وهذا التعبير . . (هل عسيتم). . يفيد ما هو متوقع من حال المخاطبين . ويلوح لهم بالندير والتحذير . . احذروا فإنكم منتهون إلى أن تعودوا إلى الجاهلية التي كنتم فيها . تفسدون في الأرض وتقطعون الأرحام , كما كان شأنكم قبل الإسلام . .

وبعد هذه اللفتة المفزعة المنذرة لهم يعود إلى الحديث عنهم لو انتهوا إلى هذا الذي حذرهم إياه:

(أولئك الذين لعنهم الله ، فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟).

أولئك الذين يظنون في مرضهم ونفاقهم حتى يتولوا عن هذا الأمر الذي دخلوا فيه بظاهريهم ولم يصدقوا الله فيه ، ولم يستيقنوه . (أولئك الذين لعنهم الله) . . وطردهم وحجبهم عن الهدى ، (فأصمهم وأعمى أبصارهم) . . وهم لم يفقدوا السمع ، ولم يفقدوا البصر ؛ ولكنهم عطلوا السمع وعطلوا البصر ، أو عطلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر ؛ فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدي هذه الوظيفة .

ويتساءل في استنكار: (أفلا يتدبرون القرآن) . . وتدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح النوافذ ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير . وينشيء حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير ، (أم على قلوب أقفالها ؟) فهي تحول بينها وبين القرآن وبينها وبين النور ؟ فإن استغلق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء والنور !

الدرس الثالث: 25 - 28 تهديد للمرتدين الماكرين وبيان ارتباطهم بالكافرين ومشهد مصور لاحتقارهم

ويمضي في تصوير حال المنافقين ، وسبب توليهم عن الإيمان بعد إذ شارفوه فيتين أنه تأمرهم مع اليهود ، ووعدهم لهم بالطاعة فيما يدبرون:

(إن الذين ارتدوا على أديبارهم - من بعد ما تبين لهم الهدى - الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم) . .

والتعبير يرسم معنى رجوعهم عن الهدى بعدما تبين لهم ، في صورة حركة حسية ، حركة الارتداد على الأدبار . ويكشف ما وراءها من وسوسة الشيطان وتزيينه وإغرائه . فإذا ظاهر هذه الحركة وباطنها مكشوفان مفهومان ! وهم المنافقون الذين يتخفون ويتسترون ! ثم يذكر السبب الذي جعل للشيطان عليهم هذا السلطان ، وانتهى بهم إلى الارتداد على الأدبار بعد ما عرفوا الهدى وتبينوه:

(ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر) . .

واليهود في المدينة هم أول من كرهوا ما نزل الله ؛ لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون الرسالة الأخيرة فيهم ، وأن يكون خاتم الرسل منهم ؛ وكانوا يستفتحون على الذين كفروا وبوعدونهم ظهور النبي الذي يقودهم ويمكن لهم في الأرض ويسترجع ملكهم وسلطانهم . فلما اختار الله آخر رسله من نسل إبراهيم ، من غير يهود ،

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْحَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ

لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَافَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءَ لَأَرْبَتْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30)

كرهوا رسالته . حتى إذا هاجر إلى المدينة كرهوا هجرته , التي هددت ما بقي لهم من مركز هناك . ومن ثم كانوا إلبا عليه منذ أول يوم , وشنوا عليه حرب الدس والمكر والكيد , حينما عجزوا عن مناصبته العداء جهرة في ميادين القتال ; وانضم إليهم كل حانق , وكل منافق , وظلت الحرب سجلا بينهم وبين رسول الله [ ص ] حتى أجلاهم في آخر الأمر عن الجزيرة كلها وخلصها للإسلام .

وهؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم قالوا لليهود: (سنطيعكم في بعض الأمر). . والأرجح أن ذلك كان في الدس والكيد والتأمر على الإسلام ورسول الإسلام .

(والله يعلم إسرارهم).

وهو تعقيب كله تهديد . فأين يذهب تأمرهم وإسرارهم وماذا يؤثر ; وهو مكشوف لعلم الله ? معرض لقوة الله ?

ثم التهديد السافر بجند الله , والمتآمرون في نهاية الحياة:

(فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم)!

وهو مشهد مفرع مهين . وهم يحتضرون . ولا حول لهم ولا قوة . وهم في نهاية حياتهم على هذه الأرض . وفي مستهل حياتهم الأخرى . هذه الحياة التي تفتتح بضرب الوجوه والأدبار . في لحظة الوفاة , لحظة الضيق والكرب والخافة . الأدبار التي ارتدوا عليها من بعد ما تبين لهم الهدى ! فيا لها من مأساة !

(ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله , وكرهوا رضوانه , فأحبط أعمالهم). .

فهم الذين أرادوا لأنفسهم هذا المصير واختاروه . هم الذين عمدوا إلى ما أسخط الله من نفاق ومعصية وتأمر مع أعداء الله وأعداء دينه ورسوله فاتبعوه . وهم الذين كرهوا رضوان الله فلم يعملوا له , بل عملوا ما يسخط الله ويغضبه . . (فأحبط أعمالهم). . التي كانوا يعجبون بها ويتعجبون ; ويحسبونها مهارة وبراعة وهم يتآمرون على المؤمنين ويكيدون . فإذا بهذه الأعمال تتضخم وتنتفخ . ثم تهلك وتضيع !

الدرس الرابع: 29 - 31 تهديد المنافقين وكشفهم للمؤمنين وتعريف المؤمنين على ملامحهم

وفي نهاية الشوط يتهددهم بكشف أمرهم لرسول الله [ ص ] وللمسلمين , الذين يعيشون بينهم متخفين ; يتظاهرون بالإسلام وهم لهم كأئدون:

أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ? ولو نشاء لأريناكمهم , فلعرفتهم بسيماهم , ولتعرفنهم في لحن القول , والله يعلم أعمالكم . ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم . .

ولقد كان المنافقون يعتمدون على إتقانهم فن النفاق , وعلى خفاء أمرهم في الغالب على المسلمين . فالقرآن يسفه ظنهم أن هذا الأمر سيظل خافيا , ويهددهم بكشف حالهم وإظهار أضغانهم وأحقادهم على المسلمين . ويقول لرسوله [ ص ]: (ولو نشاء

لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم). . أي لو نشاء لكشفنا لك عنهم بذواتهم وأشخاصهم , حتى لترى أحدهم فتعرفه من ملامحه [ وكان هذا قبل أن يكشف الله له عن نفر منهم بأسمائهم ] ومع ذلك فإن لهجتهم ونبرات صوتهم , وإمالتهم للقول عن استقامته , وانحراف منطقهم في خطابك سيدلك على نفاقهم: (ولتعرفنهم في لحن القول). .

ويعرج على علم الله الشامل بالأعمال وبواعثها: (والله يعلم أعمالكم). . فلا تخفى عليه منها خافية . .

ثم وعد من الله بالابتلاء . . ابتلاء الأمة الإسلامية كلها , لينكشف المجاهدون والصابرون ويتميزوا وتصيح

وَلَتَبْلُوكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ (31)  
أخبارهم معروفة , ولا يقع الالتباس في الصفوف , ولا يبقى مجال لخفاء أمر المنافقين ولا أمر الضعاف والجزعين:

(ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين , ونبلوا أخباركم). .

والله يعلم حقائق النفوس ومعادنها , ويطلع على خفاياها وخباياها , ويعلم ما يكون من أمرها علمه بما هو كائن فعلا . فما هذا الابتلاء ? ولمن يكون العلم من ورأه بما يتكشف عنه ?

إن الله - جلت حكمته - يأخذ البشر بما هو في طوقهم , وما هو من طبيعتهم واستعدادهم . وهم لا يعلمون عن الحقائق المستكنة ما يعلمه . فلا بد لهم من تكشف الحقائق ليدركوها ويعرفوها ويستيقنوها , ثم ينتفعوا بها .

والابتلاء بالسراء والضراء , وبالنعماء والبأساء , وبالسعة والضيق , وبالفرح والكرب . . كلها تكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس , وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها . .

أما المراد بعلم الله لما تتكشف عنه النفوس بعد الابتلاء فهو تعلق علمه بها في حالتها الظاهرة التي يراها الناس عليها .

ورؤية الناس لها في صورتها التي تدركها مداركهم هو الذي يؤثر فيهم ويكيف مشاعرهم , ويوجه حياتهم بوسائلهم الداخلة في طوقهم . وهكذا تتم حكمة الله في الابتلاء .

ومع هذا فإن العبد المؤمن يرجو ألا يتعرض لبلاء الله وامتحانه . ويتطلع إلى عافيته ورحمته . فإذا أصابه بلاء الله بعد هذا صبر له , وهو مدرك لما وراءه من حكمة ; واستسلم لمشية الله واثقا من حكمته , متطلعا الى رحمته وعافيته بعد الابتلاء .

وقد روي عن الفضيل العابد الصوفي أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبلنا . فإنك إن بلوتنا فضحتنا , وهتكت أستاذنا وعذبتنا . .

الوحدة الثانية: 32 - 38 الموضوع: الإفتراق بين المؤمنين والكافرين وتوجيهات جهادية للمؤمنين وتهديد المتناقلين بالإستبدال

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ (32)  
مقدمة الوحدة

الحديث في الشطر الأول من هذا الشوط الأخير من السورة عن (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى). . وهؤلاء , الأقرب أن يكونوا هم المشركين الذين كان الحديث عنهم في أول السورة . فهم الذين ينطبق عليهم هذا التبحر في الوقوف للدعوة الإسلامية . التبحر الذي يعبر عنه بالصد عن سبيل الله ومشاققة الرسول [ ص ] وإن كان هناك احتمال آخر , وهو أن يكون الحديث عاما لكل من يقف هذا الموقف ; يشمل اليهود في المدينة ويشمل المنافقين , على سبيل التهديد لهم إذا هموا أن يقفوا مثل هذا الموقف جهرة أو سرا . ولكن الاحتمال الأول أقرب على كل حال .

أما الحديث في الشطر الثاني والأخير حتى ختام السورة فهو خطاب للمؤمنين , يدعوهم إلى مواصلة الجهاد بالنفس وبالمال , دون تراخ أو دعوة إلى مهادنة الكفر المعتدي الظالم , تحت أي مؤثر من ضعف أو مراعاة قرابة أو رعاية مصلحة . ودون بخل بالمال الذي لا يكلفهم الله أن ينفقوا منه إلا في حدود مستطاعة , مراعى الشح الفطري في النفوس ! وإن لا ينهضوا بتكاليف هذه الدعوة فإن الله يحرمهم كرامة حملها والانتداب لها , ويستبدل بهم قوما غيرهم ينهضون بتكاليفها , ويعرفون قدرها . وهو تهديد عنيف مخيف يناسب جو السورة , كما يشي بأنه كان علاجا لحالات نفسية قائمة في صفوف المسلمين إذ ذاك - من غير المنافقين - وذلك إلى جانب حالات التفاني والتجرد والشجاعة والفداء التي اشتهرت بها الروايات . فقد كان في الجماعة المسلمة هؤلاء وهؤلاء . وكان القرآن يعالج ويربي لينهض بالمخلفين إلى المستوى العالي الكريم . .

(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله , وشاقوا الرسول - من بعد ما تبين لهم الهدى - لن يضرروا الله شيئا , وسيحبط أعمالهم) . .

إنه قرار من الله مؤكد , ووعد منه واقع: أن الذين كفروا , ووقفوا في وجه الحق أن يبلغ إلى الناس ; وصدوا الناس عنه بالقوة أو المال أو الخداع أو أية وسيلة من الوسائل , وشاقوا الرسول [ ص ] في حياته بإعلان الحرب عليه , والمخالفة عن طريقه , والوقوف في غير صفه . أو بعد وفاته بمحاربة دينه وشريعته ومنهجه والمتبعين لسننه والقائمين على دعوته . وذلك (من بعد ما تبين لهم الهدى) . . وعرفوا أنه الحق ; ولكنهم اتبعوا الهوى , وجمح بهم العناد وأعمالهم الغرض , وقادتهم المصلحة العاجلة . .

قرار من الله مؤكد , ووعد من الله واقع أن هؤلاء (لن يضرروا الله شيئا) . . وهم أضال وأضعف من أن يذكروا في مجال إلحاق ضرر بالله سبحانه وتعالى . فليس هذا هو المقصود إنما المقصود أنهم لن يضرروا دين الله ولا منهجه ولا القائمين على دعوته . ولن يحدثوا حدثا في نواميسه وسننه . مهما بلغ من قوتهم , ومهما قدروا على إيذاء بعض المسلمين فترة من الوقت . فإن هذا بلاء وقتي يقع بإذن الله لحكمة يريد بها ; وليست ضرا حقيقيا لناموس الله وسننه ونظامه ونهجه وعباده القائمين على نظامه ونهجه . والعاقبة مقررة: (وسيحبط أعمالهم) . . فتنتهي إلى الخيبة والدمار . كما تنتهي الماشية التي ترعى ذلك النبات السام !

وفي ظل هذا المصير المخيف للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول . . . يلتفت إلى الذين آمنوا ليحذرهم ظل هذا المصير , ويوجههم إلى طاعة الله وطاعة الرسول:

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول , ولا تبطلوا أعمالكم) . .

وهذا التوجيه يوحى بأنه كان في الجماعة المسلمة يومئذ من لا يتحرى الطاعة الكاملة ; أو من تثقل عليه بعض التكاليف , وتشق عليه بعض التضحيات , التي يقتضيها جهاد هذه الطوائف القوية المختلفة التي تقف

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34)  
للإسلام , وتناوشه من كل جانب ; والتي تربطها بالمسلمين مصالح ووشائج قرى يصعب فصمها والتخلي عنها نهائيا كما تقتضي العقيدة ذلك .

ولقد كان وقع هذا التوجيه عنيفا عميقا في نفوس المسلمين الصادقين ; فارتعشت له قلوبهم , وخافوا أن يقع منه ما يبطل أعمالهم , ويذهب بحسناتهم . .

قال الإمام أحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة: حدثنا أبو قدامة , حدثنا وكيع , حدثنا أبو جعفر الرازي , عن الربيع بن أنس , عن أبي العالية , قال: كان أصحاب رسول الله [ ص ] يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب , كما لا ينفع مع الشرك عمل , فنزلت: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) . . فخافوا أن يبطل الذنب العمل .

وروي من طريق عبد الله بن المبارك , أخبرني بكر بن معروف , عن مقاتل بن حيان , عن نافع , عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: "كنا معشر أصحاب رسول الله [ ص ] نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول , حتى نزلت: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) . . فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا ? فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش . حتى نزل قوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) . . فلما نزلت كففتنا عن القول في ذلك . فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصيها" .

ومن هذه النصوص يتجلى كيف كانت نفوس المسلمين الصادقين تتلقى آيات القرآن: كيف تهتز لها وتضطرب , وكيف ترتجف منها وتخاف , وكيف تحذر أن تقع تحت طائلتها , وكيف تتحرى أن تكون وفقها , وأن تطابق أنفسها عليها . . وبهذه الحساسية في تلقي كلمات الله كان المسلمون مسلمين من ذلك الطراز !

ثم بين الله لهم في الآية التالية مصير الذين يشاقون رسول الله [ ص ] ويخرجون عن طاعته , ثم يصرون على هذا ويذهبون من هذه الأرض كافرين:

(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله , ثم ماتوا وهم كفار , فلن يغفر الله لهم) . .

فالفرصة متاحة فقط للمغفرة في هذه الدنيا ; وباب التوبة يظل مفتوحا للكافر وللعاصي حتى يغرغر . فإذا بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ولا مغفرة , فقد ذهبت الفرصة التي لا تعود .

ومثل هذه الآية يخاطب المؤمنين كما يخاطب الكفار . فأما هؤلاء فهي نذارة لهم ليتداركوا أمرهم ويتوبوا قبل أن تغلق الأبواب . وأما أولئك فهي تحذير لهم وتنبيه لاتقاء كافة الأسباب التي تقرب بهم من هذا الطريق الخطر المشؤوم !

ندرك هذا من ترتيب النهي عن الوهن والدعوة إلى السلم في الآية التالية على ما ورد في الآية السابقة من بيان لمصير الكافرين المشاقين:(فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم , وأنتم الأعلون والله معكم , ولن يتركم أعمالكم) . .

فهذا هو الذي يحذر المؤمنين إياه , ويضع أمامهم مصير الكفار المشاقين للرسول , ليحذروا شبحه من بعيد !

وهذا التحذير يشي بوجود أفراد من المسلمين كانوا يستقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة ; وتهن عزائمهم دونه ; ويرغبون في السلم والمهادنة ليستريحوا من مشقة الحروب . وربما كان بعضهم ذوي قرابة في المشركين ورحم , أو ذوي مصالح وأموال ; وكان هذا يجنح بهم إلى السلم والمهادنة . فالنفس البشرية هي

فَلَا تَهْنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالِكُمْ (35) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَصْعَاتِكُمْ (37)

هي ; والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن وهذه الخواطر الفطرية بوسائلها . وقد نجحت نجاحا خارقا . ولكن هذا لا ينفي أن تكون هناك روايب في بعض النفوس , وبخاصة في ذلك الوقت المبكر من العهد المدني . وهذه الآية بعض العلاج لهذه الروايب . فلننظر كيف كان القرآن يأخذ النفوس . فنحن في حاجة إلى تحري خطوات القرآن في التربية . والنفوس هي النفوس:

(فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . وأنتم الأعلون . والله معكم . ولن يتركم أعمالكم) . .

أنتم الأعلون . فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . أنتم الأعلون اعتقادا وتصورا للحياة . وأنتم الأعلون ارتباطا وصلة بالعلي الأعلى . وأنتم الأعلون منهجا وهدفا وغاية . وأنتم الأعلون شعورا وخلقًا وسلوكًا . . ثم . . أنتم الأعلون قوة ومكانا ونصرة . فمعكم القوة الكبرى: (والله معكم) . . فليستم وحدكم . إنكم في صحبة العلي الجبار القادر القهار . وهو لكم نصير حاضر معكم . يدافع عنكم . فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم ? وكل ما تبذلون , وكل ما تفعلون , وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم , لا يضع منه شيء عليكم: (ولن يتركم أعمالكم) . . ولن يقطع منها شيئًا لا يصل إليكم أثره ونتيجته جزاؤه

فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم , من يقرر الله - سبحانه - له أنه الأعلى . وأنه معه . وأنه لن يفقد شيئًا من عمله . فهو مكرم منصور مأجور ?

هذه هي اللمسة الأولى . واللمسة الثانية تهوين من شأن هذه الحياة الدنيا , التي قد يصيبهم بعض التضحيات فيها . وتوفية كاملة في الآخرة للأجور مع عدم إبهاظهم ببذل المال مقابل هذه الأجور !

(إنما الحياة الدنيا لعب ولهو . وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم , ولا يسألكم أموالكم) . .

والحياة الدنيا لعب ولهو حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى . حين تعاش لذاتها مقطوعة عن منهج الله فيها . ذلك المنهج الذي يجعلها مزرعة الآخرة ; ويجعل إحسان الخلافة فيها هو الذي يستحق وراثته الدار الباقية . وهذا هو الذي تشير إليه الفقرة التالية في الآية: (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) . فالإيمان والتقوى في الحياة الدنيا هو الذي يخرجها عن أن تكون لعبا ولهوا ; ويطبعها بطابع الجد , ويرفعها عن مستوى المتاع الحيواني , إلى مستوى الخلافة الراشدة , المتصلة بالملا الأعلى . ويومئذ لن يكون ما يبذله المؤمن المتقي من عرض هذه الحياة الدنيا ضائعا ولا مقطوعا ; فعنه ينشأ الأجر الأوفى , في الدار الأبقى . . ومع هذا فإن الله لا يسأل الناس أن يبذلوا أموالهم كلها , ولا يشق عليهم في فرائضه وتكاليفه , لعلمه سبحانه بشح نفوسهم فطرة وخلقة . وهو لا يكلف نفسا إلى وسعها وهو أرحم بهم من أن يكلفهم بذلها كلها , فتضيق صدورهم وتظهر أضعفانهم:

(إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا , ويخرج أضعفانكم) . .

وهذا النص يوحى بحكمة اللطيف الخبير , كما يوحى برحمته ولطفه بالنفوس . ويكشف عن التقدير الدقيق في تكاليف هذا الدين , ومراعاته للفطرة , وتناسقه مع بشرية البشر بكل استعداداتها , وطاقتها , وأحوالها . فهو عقيدة ربانية لإنشاء نظام رباني إنساني . نظام رباني من ناحية أن الله هو الذي يقيم منهجه وقواعده ; وإنساني من ناحية أن الله يراعي في تكاليفه طاقة الإنسان وحاجته . والله هو الذي خلق , وهو أعلم بمن خلق , وهو اللطيف الخبير .

وفي النهاية يواجههم بواقع حالهم تجاه دعوتهم إلى البذل في سبيل الله ; ويعالج شح النفوس بالمال بالوسائل القرآنية , كما عالج شحها في ذات النفس عند الجهاد:

هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38)

(ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله . فمنكم من يبخل . ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . والله الغني وأنتم الفقراء . وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) . .

والآية ترسم صورة وصفية لواقع الجماعة المسلمة يومذاك . ولواقع الناس تجاه الدعوة إلى البذل في كل بيئة . فهي تقرر أن منهم من يبخل . ومعنى هذا أن هنالك من لا يبخلون بشيء . وقد كان هذا واقعا , سجلته الروايات الكثيرة الصادقة , وسجله القرآن في مواضع أخرى . وقد حقق الإسلام في هذا المجال مثلا تحسب من خوارق الأمثال في البذل والتضحية عن رضى وعن فرح بالبذل والعطاء . ولكن هذا لم يمنع أن يكون هنالك من يبخل بالمال . ولعل الجود بالنفس أرخص عند بعضهم من الجود بالمال !

والقرآن يعالج هذا الشح في هذه الآية:

(ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه) . .

فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور , يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد , يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون . فلا يجدون إلا ذلك الرصيد المذخور . فإذا بخلوا بالبذل , فإنما يبخلون على أنفسهم ; وإنما يقللون من رصيدهم ; وإنما يستخسرون المال في ذواتهم وأشخاصهم ; وإنما يحرمونها بأيديهم !

أجل . فالله لا يطلب إليهم البذل , إلا وهو يريد لهم الخير , ويريد لهم الوفرة , ويريد لهم الكنز والذخر . وما يناله شيء مما يبذلون , وما هو في حاجة إلى ما ينفقون :

(والله الغني وأنتم الفقراء) . .

فهو الذي أعطاكم أموالكم , وهو الذي يدخر لكم عنده ما تنفقونه منها . وهو الغني عما أعطاكم في الدنيا , الغني عن أرصدتكم المذخورة في الآخرة . وأنتم الفقراء في الدارين وفي الحاليين . أنتم الفقراء إلى رزقه في الدنيا , فما لكم من قدرة على شيء من الرزق إلا أن يهبكم إياه . وأنتم الفقراء إلى أجره في الآخرة , فهو الذي يتفضل به عليكم , وما أنتم بموفين شيئاً مما عليكم , فضلاً على أن يفضل لكم شيء في الآخرة , إلى أن يتفضل عليكم .

فقيم البخل إذن وقيم الشح ? وكل ما في أيديكم , وكل ما ينالكم من أجر على ما تنفقون هو من عند الله , ومن فضل الله ?

ثم الكلمة الأخيرة وهي فصل الخطاب . .

إن اختيار الله لكم لحمل دعوته تكريم ومن وعطاء . فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلاً لهذا الفضل , وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة , وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم فيهن عليكم كل ما عداه . . فإن الله يسترد , ما وهب , ويختار غيركم لهذه المنة ممن يقدر فضل الله :

(وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم , ثم لا يكونوا أمثالكم) . .

وإنها لندارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان , وأحس بكرامته على الله , وبمقامه في هذا الكون وهو يحمل هذا السر الإلهي العظيم . ويمشي في الأرض بسلطان الله في قلبه ; ونور الله في كيانه ; وبذهب ويجيء وعليه شارة مولاه . .

وما يطيق الحياة وما يطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه , وبطرد من الكنف , وتوصد دونه الأبواب . لا بل إن الحياة لتغدو جحيماً لا يطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب .

إن الإيمان هبة ضخمة , لا يعدلها في هذا الوجود شيء ; والحياة رخيصة رخيصة , والمال زهيد زهيد , حين يوضع الإيمان في كفة , ويوضع في الكفة الأخرى كل ما عداه . .

ومن ثم كان هذا الإنذار أهول ما يواجهه المؤمن وهو يتلقاه من الله . .